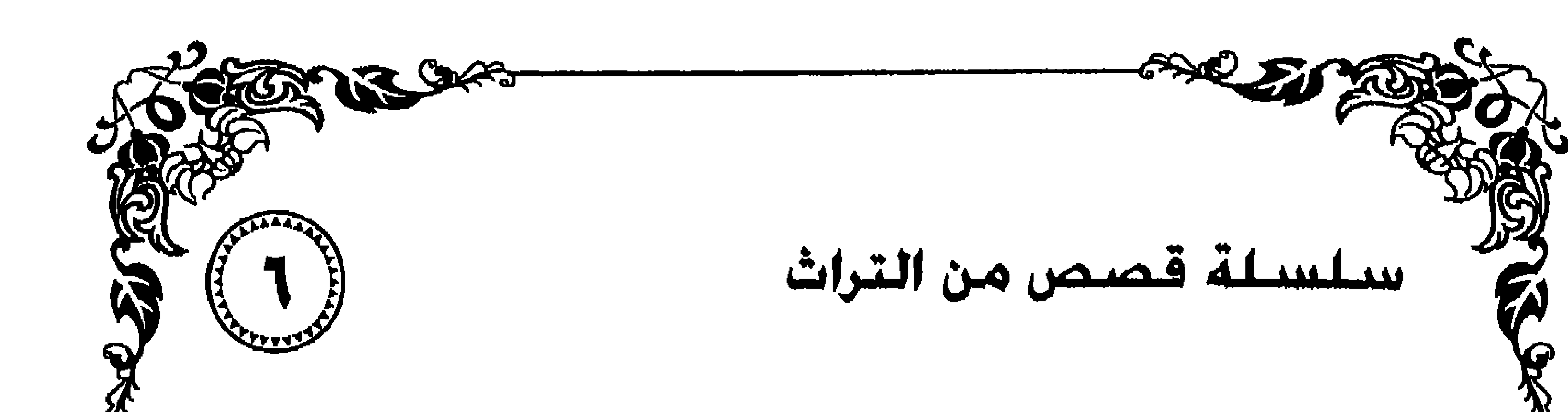


سلسلة قصص من التراث ٦

الرجل الصالح والسحابة

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

الرجل الصالح والسحابة .- الرياض .

١٤ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٥ - ٩٨٦ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٤

ردمك: ٥- ٩٨٦ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٤

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

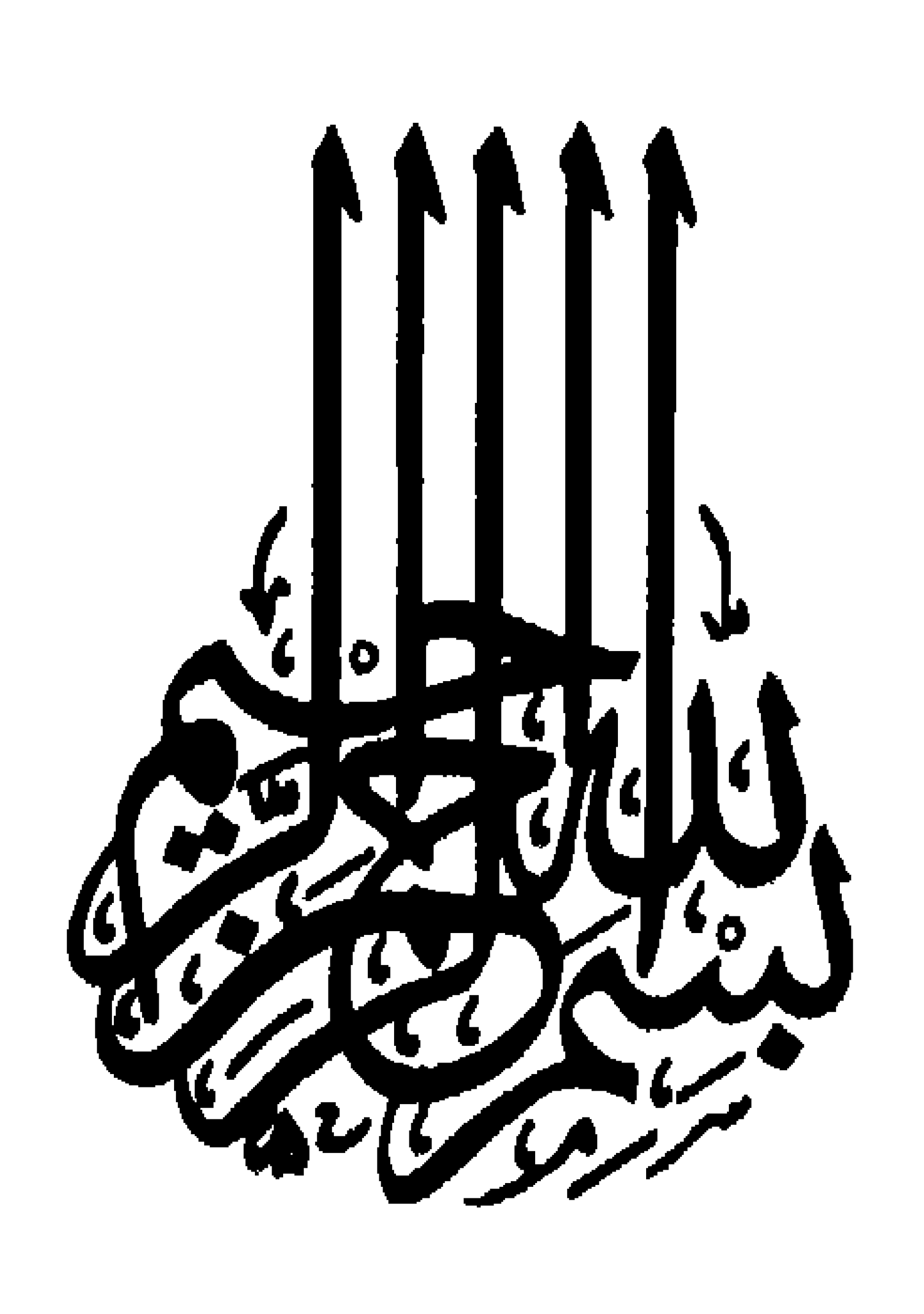
الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



يُحْكَيَ أنَّ رجلاً في قومٍ موسى عليه السلامُ كانَ منَ العبَّاد الموصوفينَ بالزهد، كانَ كثير الصلاةِ والصيامِ والزكاةِ والقيامِ، لا يكلُّ ولا يملُّ، محبًا لعبادِ اللهِ، يسعى إلى تفريجِ كربهمْ بالدعاء تارةً، وبتقديم ما يملكُ تارةً أخرى.

كانَ مستجابَ الدعاءِ، صائب الرؤية، لا يحدثُ صادقٌ إلاَّ ما فيه منفعةٌ للناسِ. وقد سخرَّ اللهُ سبحانه وتعالى لهُ سحابة تسيرُ معهُ حيثُ يسيرُ، تقيه وَقْدَةَ القيظِ، ولهيبَ الصيفِ.

وظل على ذلك مدةً من الزمن حتى عرفه الناس بذلك، وكان حديثَهم في زهده وتقواه ونسكه اعتراهُ فتورٌ في عبادتِه، فركَنَ إلى بعضِ زخارفِ الدنيا وبهجتها، فأزال اللهُ عنهُ سحابته، وحجب إجابتَهُ..

فكثرَ حزنُهُ وشجونُهُ وطالَ همُّهُ وندمَ على فتورِه وركونهِ إلى الدنيا، وصارَ يبكي ويتأسفُ ويتحسرُ ويتلهف.

نامَ ليلةً من الليالِي ومضت أيامٌ وأسابيعُ وهو على هذه الحال، فتوضأ وصلّى ما شاء اللهُ، واستغفر ربَّه وبكى وتضرعَ ودعا الله بقلبٍ خاشعٍ ودمعٍ حارٍ، ونامَ وَهُوَ مطمئنُ البالِ وأحسَّ أنَّ الله قد رضيَ عنهُ.

رأى في المنامِ رؤيا صالحةً: قيلَ لَهُ: إذا أردتَ أن يرُدَّ الله تعالى عليكَ

سحابتكَ، فاذهبْ إلى الملك الفلاني في بلدِ كذا، واسألهُ أنْ يدعو اللهَ لكَ أن يردَّ عليكَ سحابتكَ.

صَحَا مِنْ نَوْمِهِ فرِحًا مستبشرًا، عادَ إليهِ التفاؤلُ والسرورُ وبدتْ عليهِ علاماتُ الحُبور والرضى.

لم يتأخرْ عنَ الملكِ، قام إليه مسرعًا يقطعُ الأرض والفيافي، والوديانَ والجبالَ لا يكلُّ ولا يتعبُ، وما إنْ وصلَ إلى تلكَ البلد التي ذُكرتْ لهُ في المنامِ حتى أحسَّ بالراحةِ والسرور، فسألَ أول رجل رآه عن قصر الملكِ، فأرشدَهُ إليهِ، فشكَره على حسنِ صنيعهِ، وانصرفَ إلى القصرِ.

ولـمَّا وصلَ هناك رأى عند باب القصر غلامًا جالسًا على كرسيٍّ عظيمٍ من الذهبِ الأحمرِ، مرصعٍ بالدرِّ والجوهرِ، والناسُ بين يديهِ يسألونَهُ حوائجهمْ، والغلام يصرفُ بعضَ الناسِ، ويقضيْ حوائجَ بعضهمْ.

انتظرَ الرجُل الصالحُ المجلسَ حتَّى انفضَّ(١)، فاقتربَ من الغلامِ وسلَّمَ عليهِ.

فقال له الغلام: منْ أينَ أتيْتَ؟

– من بلادٍ بعيدةٍ.

– وما حاجَتُكَ؟

(١) انفضَّ: انتهى.

- أريدُ الاجتماعَ بالملكِ.

- لا سبيلَ لك اليومَ، فسلْ حاجتك أقضِها لكَ إن استطعتُ.

- إن حاجتي لا يقضيها إلا الملكُ.

إنّ الملكَ ليسَ لهُ إلا يومٌ واحدٌ هو يوم الجمعة الذي يجتمعُ إليهِ الناسُ فيه فاذهبْ حتى يأتي يومُ الجمعةِ

سمعًا وطاعةً.

إنْ لم تعرفْ احداً هنا لتنزلَ عندَهُ، فأهلاً بكَ في بيتي ضيفًا حتى يحينَ يومُ الجمعةِ.

أشكركَ على معروفكِ، وباركَ اللهُ فيكَ.

خرج الرجلُ الصالحُ من القصر، وتوجّه إلى طرفِ المدينةِ فوجَد مسجداً قديمًا مهجوراً، فأقام فيه يعبد الله عزَّ وجل فأكثر من صلاتهِ وقيامهِ، وصام الأيامَ التي كانَ ينتظر رحيلها بفارغِ الصبرِ.

حدثتهُ نفسُه عنْ هذا الملكِ الذيْ يحتجبُ عن الناسِ وأنكرَ عليه ذلكَ، وصارَ يشكُّ في رؤيتهِ التي رآها في نومهِ ويقول: لعلّها أضغاثُ أحلامٍ[1]!!

(١) أضغاث أحلام: ما كان ملتبسًا مختلطًا لا يصحُّ تأويلُهُ.

ولمّا كانَ يومُ الجمعةِ خرجَ من المسجدِ متوجهًا إلى قصر الملكَ ولما اقترب منه رأى خلقًا كثيراً عندَ البابِ ينتظرونَ الإذنَ بالدخولِ، فوقفَ معَ النَّاسِ.

خرجَ الوزيرُ وأذنَ للناسِ في الدخولِ، فدخلوا ودخلَ معهم وإذا بالملك جالسٌ وبين يديه أربابُ دَوْلتهِ منْ وزراء وقوادٍ، ومستشارينَ، وحرّاس.

وقفَ حاجبُ الملكِ يقدمُ أصحابَ الحوائجِ واحدًا بعدَ واحدٍ، حتى وصلَ الدورُ للرجلِ الصالحِ.

تقدمَ إلى الملكَ فلما نظرَ إليه قالَ: مرحبًا بصاحبِ السحابةِ!!

اجلسْ حتى أفرغَ منْ حوائجِ النَّاسِ، وأنظر في أمركَ.

رجعَ الرجلُ الصالحُ إلى مكانِه وَهُوَ مشدوهُ البالِ، حائر متحيّرٌ من أمره فلمَّا فرغَ الملكُ منْ قضاءِ حوائجِ النَّاسِ قام منْ مجلسهِ وأمرَ بانفضاضِ الجلسةِ، فغادرت حاشيته المكانَ ولم يبقَ إلا هُوَ والرجلُ الصالحُ في المجلسِ.

رحب به ترحيبًا يليق بالملوك والوزراء، والأعيان، وسأله عن حاله وأحواله.

أخذَ بيدهِ وأدخلَهَ مَعهَ إلى قصرِه، ثمَّ مشى بهِ في دهليزِ القصرِ.

ذُهِلَ صاحبُ السحابةِ فيما يراهَ، وصارَ يفكرُ في أمرِ هذا الملكِ، وفي المكانِ الذي سيأخذهُ إليهِ.

سار به حتَّى انتهى إلى بابٍ مصنوعٍ من سَعَفِ النخلِ[١] فدخلا منه، رفعَ الرجلُ الصالحُ رأسَهُ فرأى أمامَهَ بناءً قديمًا باليًا وجُدُرًا متصدعةً، وبيتًا خربًا فدخلَ الملكُ هذا البيتَ ودخلَ معهُ الرجلُ الصالحُ.

أجالَ الرجلُ الصالح بصرَه في هذا البيت الحقير، ولم يدرِ، الأمرُ، ولِمَ جاءَ به الملك إلى هنا؟

واستغرب أكثر حينما نظرَ إلى زوايا البيت لمْ يجدْ إلا حصيرةً رثةً، وسجَّادةً باليةً، وإناءً للوضوءِ، وبعضَ السلالِ الفارِغة وشيئًا من الخوص[٢]

استأذن الملك ضيفه ودخل غرفة أخرى، انتظر الرجل الصالح رجوع الملك، وبعد قليل رأى أمامه رجلاً آخر، يلبس ثوبًا مُرَقعًا من صوف، معتمراً قلنسوة[٣] من شعر، عليه علامات الفقرِ والحرمان. وبعد قليل سأله: أين الملك؟ لقد تأخر.

ضحك الرجل الذي أمامه وقال له: أنا الملك: تعالَ واجلس إلى جانبي.

ذُهِلَ الرجلُ الصالحُ منْ هذا الملكِ، وكيفَ صارَ بعدَ أن غيرَّ شكلّهُ.

---

(١) سَعَف النخل: أوراق النخل.

(٢) الخوص: ورق النخل.

(٣) معتمراً قلنسوة: وضعًا على رأسه قبعة.

أيعقلُ أنْ يكونَ هذا الملكُ الذيْ كانَ يجلسُ بينَ حاشيتهِ ويقضي حوائجَ الناسِ وهو في أحلى حلةٍ وأروعِ زينةٍ؟.

ما الذيْ أصابَهُ؟..

ولما رأى الملكُ دهشةَ صاحبِ السحابةِ توجَه إليهِ قائلاً: يا أخيِ، هلْ تحبُّ أنْ نطلعكَ على حالِنا؟ أمَّ نقضيَ حاجتكَ وتنصرف؟

– واللهِ لقد شغلني حالُك أيُّها الملك، وكدت أنسى الذيْ جئتُ من أجلهِ.

– أو تحبُ أنْ تسمع قصتي كلَّها؟

– بكلِ تأكيدٍ إذا أردتَ ذلك.

– والله لا يدريْ بقصتي إلاَّ اللهُ ثمَّ زوجتي وغلامي

– تفضلْ أيها الملك فأنا مشتاق لسماع قصتك.

أخذَ الملكُ يروي قصته قائلاً:

لقد ورثتُ هذهِ المملكةَ عَنْ آبائي وأجدادي، وكانوا – يعلمُ اللهُ – صالحين عادلين، نشرُوا الأمنَ والعدلَ في ربوعِ البلادِ، لم يظلمُوا أحداً، ولم يعتدُوا.

فلما آلَ(١) الأمرُ إليَّ بعدَ موتِ والدي الذي ربَّاني عَلَى التدين، زهدتُ في الدُّنيا، فاعتزلتُ الناسَ، وطلبتُ منهمْ أن يختارُوا ملكًا غيري.

فجاءَ وجُوهُ القومِ(٢) عندي راجينَ مني ألاَّ اعتزلَ، وخافُوا منَ ملكٍ يتسلطُ عليهمْ، وبعدَ رجائِهم وافقتُ علىَ ذلكَ فأنني خفتُ عليهمْ منَ الفتنةِ، وتضييع الدِّينِ، والشرائعِ. فبايعوني وأنا واللهِ كارهٌ، فتركتُ أمورهم على ما كانتْ عليهِ وجعلتُ القصرَ على عادتهِ، والحراسَ على حالِها، والمماليكَ على دأبها(٣)، ولمْ أَغيِّر شيئًا، وأقعدتُ الحراسَ على الأبوابِ بالسلاحِ؛ إرهابًا لأهلِ الفسادِ والشرورِ وحمايةً لأهل الخير، وتركتُ القصر مزينًا على حالهِ، ولكنني فتحتُ لهُ بابًا وهُوَ الذيْ رأيتَهُ يوصلني إلى هذا الكوخِ القديمِ، فأدخلُ فيهِ وأنزعُ ثيابَ الملكِ وألبسُ هذا وأقعدُ في هذهِ الزاوية أصلي وأدعُو اللهَ سبحانَه وتعالىَ، وفي وقتِ فراغي أعملُ في هذا الخوصِ فأصنعُ السلاَل وأرسلُها مع غلامي إلى السوقِ ليبيعها ويشتري لي ولزوجتي طعامًا نقتاتُ(٤) منهُ، وقد زهدت زوجتي كذلكَ في الدنيا كزهدي، واجتهدتْ في العبادةِ مثلي بلْ أكثرَ منيٌ، وهي الآن جالسة في تلك الغرفةِ الصغيرةِ.

(١) آل: وصل
(٢) : وجوه القوم: ساداتهم وأعيانهم وأشرافهم.
(٣) دأبها: عادتها.
(٤) نقتات: نأكل ما يقوم به بدننا.

والناسُ لا يعلمونَ ما نحنُ فيهِ ويظنونَ أنِّي أعيشُ معَ زوجتي في رغدٍ من العيشِ في القصرِ!!

ثمْ إني أقمتُ لي نائبا يجلسُ في القصرِ طيلةَ الأسبوعِ ليقضيَ جوائج الناسِ، ولكني خشيتُ أنْ يظلمَ أحداً أوْ أنْ يطغى[1] في غيابي، فجعلتُ يومًا في الجمعة أبرزُ للناسِ فيهِ، وأكشفُ مظالمهم كما رأيت، وأطَّلعُ على أحوالِهم. وأنا على هذهِ الحالةِ مدَّةً!

فاطمأنتْ نفسي إلى سيرِ العدلِ في أنحاءِ البلادِ، وعلمتُ أنَّ حاشية القصرِ كلها تتوخى العدلَ في معاملةِ الناسِ، خوفًا من عقابي.

أيّها الرجلُ الصالحُ هذهِ حالتي. ولا أحبُ أنْ يطلعَ عليها أحدٌ منَ الناس والله لو لم تكنْ صاحبَ كرامةٍ لَماَ أخبرتُكَ.. واعذرني لأني إلى الآنَ لم أقم بحقِ الضيافةِ تجاهَك، فأنتَ ضيفي والضيفُ ضيفُ اللهِ والواجبُ إكرامُهُ، وهذهِ سنةُ أبينا إبراهيمَ عليه السلام، الذيْ لم يخلُ بيتهُ من ضيفٍ طيلة حياتِه، وهُوَ أوّل من سنَّ القِرى[2]، ولنا فيه أسوةٌ سنةٌ، ولكنْ عليكَ أن تنتظرَ حتى غروبِ الشّمسِ لنتناولَ الطعامَ سويةً وتبيتَ عندنا الليلةَ ثم

(١) يطغى: يتجاوز الحد ويسرف في الظلم.

(٢) القرى: ما يقدم إلى الضيف من طعام

تنصرفَ إلى بلدتِك إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

فلما كانَ آخر النهارِ، ومالتِ الشَّمسُ إلى الغروبِ، دخلَ عليه غلامُهُ، فأخذَ ما عمَلهُ منَ السِلال وسار بها إلى السُّوقِ فَبَاعَهُ واشتَرى مِنْ ثمنه خُبزًا وفولاً واشترى بباقي ثمنهِ خوصًا وقشًا؛ فعندَ الغروبِ حضر الغلامُ وأعطى الملكَ ما اشتراهُ. فمدَّ الملكُ الطعامَ على الحصيرِ وأحضر إبريقًا من الماءِ وطلبَ منَ الرجلِ الصالحِ وغلامِه أنْ يتناولا الطعام معهُ.

بعد أن رفع قليلاً منه لزوجتهِ في الغرفة الأخرى.

صارَ الملكُ يخدمُ ضيفَهَ ويظهر له بْسطَ الوجهِ والبشاشةِ ويحادثه بأجمل الأحاديثِ ويصبُّ لهُ الماءَ ليشربَ، فلمَّا شبعوا حمدوا اللهِ وشكروه على نعمهِ التيِ لا تُحصَى.

ذهبَ الملكَ إلى فراشهِ، وطَلَبَ منْ ضيفه أنْ ينامَ على حصير خير من حصيره كان قد أعدهُ له، ولما كانَ نصفُ الليلِ قامَ الملكُ يصليِ ويبكي ويتضرَّعُ إلى الله سبحانه وتعالى ولَمَّا كانَ وقتُ السَّحر قالَ الملكُ:

اللهمَّ، إنَّ عبدَك هذا يطلبُ منكَ ردَّ سحابتهِ وإنّكَ قدْ دللته علينا، اللهمَّ ارْدُدهَا إليه، إنَّكَ على كل شيءٍ قدير.

وظلَّ الملكُ يصلِّي ويدعو حتىَّ طلعَ النهارُ، ولما انتهى قامَ وفتحَ بابهُ الخشبيَّ ونظرَ إلى السماءِ فقالَ: الحمدُ للهِ الذي استجابَ دعائي ثمَّ خاطبَ الرجلَ الصالحَ:

قمْ أيها العبدُ الصالحُ وانصرفْ إلى بلدتِك لكَ البشارةُ بقضاءِ حاجتكَ وتعجيلِ إجابتكَ.

قامَ الرجلُ فرحًا مستبشرًا وخرجَ من كوخِ الملكِ فودّعَهُ خير توديع ودعا له بطولِ العمرِ ونظرَ إلى السماءِ فإذا السحابةُ فَوقهُ تنتظره بالباب ومشىَ ومشتْ معه وعادتْ إليه كما كان وعاهَد ربَّه ألا يركنَ إلى الدُّنيا وزينتها وأن يظلَ كما كانَ عابداً مخلصًا لله في عبادتهِ.